

صفة الممُّلك أقرب إلى المشرع والعقل والواقع

بسم الله الرحمن الرحيم

آتَى اللهُ تَعَالَى الْمَلِكَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا، وَخَتَمَ اللهُ نَفْسَهُ بِالْمَلِكِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَاللَّهُ يُوْتِي مَلِكُهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ) [البقرة: 247]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: (لَمَنْ أَلِ مَلِكٌ أَلِ يَوْمَ لَيْلِهِ أَلِ وَاحِدٍ أَلِ قَهَارٍ) [غافر: 16].

وَأَتَى اللهُ آلَ إِبْرَاهِيمَ: (مَلِكًا عَظِيمًا) [النساء: 54]، وَجَعَلَ صَالِحِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: (مُلُوكًا) [المائدة: 20]، وَبَعَثَ طَالُوتَ: (مَلِكًا) [البقرة: 247]، وَأَتَى دَاوُدَ: (الْمَلِكُ) [البقرة: 251]، (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) [النمل: 16]، وَقَصَّ اللهُ عَنْ: (مَلِكِ سُلَيْمَانَ) [البقرة: 102]، وَأَتَى يُوسُفَ: (مَنْ أَلِ مَلِكٌ) [يوسف: 101].

وَكَلَّ وَلاةَ الْأَمْرِ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ صَالِحِينَ مِنْ خَيْرِ عِبَادِ اللهِ (مثل من ذكرتُ من الأنبياء والمرسل)، أَوْ طَالِحِينَ (مثل الجبابرة والمضارعة والمقياصرة والمكاسرة والأباطرة) كَانُوا مَلُوكًا بِالْوَرَاثَةِ فِي أَغْلَبِ الْأَحْوَالِ أَوْ بِالْقُوَّةِ وَالغَلْبَةِ، وَمِنْهُمْ الْمَصَالِحُونَ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ، وَالطَالِحُونَ فَوْقَ الْكُفْرَةِ. وَقَدْ وَلَّى اللهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ - بَعْدَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَيْرَ أُمَّتِهِ: أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعِثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، ثُمَّ مَعَاوِيَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ - مِنَ الْمَصْحَابَةِ، ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَلَاةُ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ مِنَ الْمَتَابِعِينَ وَمِنْ بَعْدِهِمْ - رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى -

وَخَيْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْعَبُودِيَّةِ وَالْمَلِكِ فَاخْتَارَ الْأُولَى.

وَاصْطَلَحَ النَّاسُ عَلَى تَسْمِيَةِ (الْأَرْبَعَةِ الْأُولَى: خُلَفَاءُ) تَأْوِيلًا لِلْحَدِيثِ: "عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُرَادِّينَ مِنْ بَعْدِي"، وَتَسْمِيَتِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ: (أَمْرَاءَ الْمُؤْمِنِينَ)، تَأْوِيلًا لِلْحَدِيثِ: "خِلَافَةُ النَّبِيِّ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ تَكُونُ مَلَكًا".

وَلَمَّا شَكَّ أَنْ وَلايَةَ الْأَرْبَعَةِ الَّذِينَ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ بِالْتَّأْسِي بِهِمْ (كَمَا أَمَرَ اللهُ الْأُمَّةَ بِالْتَّأْسِي بِهِ) خَيْرٌ مِنْ وَلايَةِ مَنْ بَعْدِهِمْ مِنَ الْمَصْحَابَةِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - فَمِنْ دُونِهِمْ، وَأَلَّا عِلَاقَةَ لِلْخَيْرِيَّةِ بِمَجْرَدِ مِصْطَلَحِ الْخِلَافَةِ أَوْ الْإِمَامَةِ وَالْإِمَارَةِ وَالْمَلِكِ: فَقَدْ وَصَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَلَاةَ (مِنَ الْمَصْحَابَةِ وَوَلَاةَ بَنِي أُمَيَّةَ) بِالْخُلَفَاءِ فِي قَوْلِهِ: "لَا يَزَالُ الْمَدِينُ عَزِيزًا (وَفِي رِوَايَةٍ: قَائِمًا)، وَفِي رِوَايَةٍ: ظَاهِرًا) إِلَى اثْنَيْ عَشْرَةَ خَلِيفَةً". رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة: 30]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ) [النمل: 62]، أَي: يَخْلُفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: (يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ) [ص: 26]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى مِمْتِنًا عَلَى قَوْمِ هُودَ: (وَإِذْ تَرَوْا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ) [الأعراف: 69]، وَعَلَى قَوْمِ صَالِحٍ: (وَإِذْ تَرَوْا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ) [الأعراف: 74]، وَقَالَ عَنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ: (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) [الأنبياء: 73]، وَعَنْ آلِ فِرْعَوْنَ: (وَجَعَلْنَا لَهُمْ أُمَّةً يُدْعَوْنَ إِلَى الْفِرْعَوْنِ) [القصص: 41]، وَاسْمُ سُلْطَنَةِ آلِ عِثْمَانَ التَّرْكِيَّةُ خِلَافَةُ، وَالْأُولَى أَنْ تَسْمَى خِرَافَةُ، لِإِفْسَادِهَا فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا، أَبْعَدَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ!

وَلَمَّا تَزَالُ أَكْثَرُ دُولِ أَوْ رُوبَا مَلِكِيَّةٍ أَوْ أَمِيرِيَّةٍ وَرِاثِيَّةٍ، وَعَلَى رَأْسِهَا انْكَلَبَتْ بِاسْمِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ، وَكَذَا تَسْتَضَلُّ بِظِلِّهَا، وَلَمَّا تَزَالُ الْيَابَانَ مَلِكِيَّةٍ وَرِاثِيَّةٍ بِاسْمِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ، وَكَثِيرٌ مِنْ دُولِ وَإِمَارَاتِ آسِيَا وَأَفْرِيْقِيَا وَرِاثِيَّةٍ، وَلَمْ تَجْعَلْهَا صِفَةَ الْوَرِاثِيَّةِ أَدْنَى أَوْ أَكْثَرَ مِنْ جَارَاتِهَا. وَظَنَّ الْعَرَبُ أَنْ تَغْيِيرَ الْمَسْمُومِ: فَبَدَأَتْ بِتَجْرِبَةِ التَّغْيِيرِ بِمِصْرَ، وَتَبِعَتْهَا الْعِرَاقُ وَالْيَمَنُ وَالْيَبِيَا، وَلَمْ تُرَضِ النَّتِيْجَةُ شَعُوبِيًّا فَسَعَتْ إِلَى التَّغْيِيرِ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا: الثَّوْرَةُ وَالْمَخْرُوجُ عَلَى الْوَلَاةِ بَعْدَ نَحْوِ نِصْفِ قَرْنٍ، وَكَالْعَادَةِ لَمْ يَحْمَدِ الثَّوَارُ أَوْ شَعُوبُهُمُ الْعَاقِبَةَ. وَاخْتَارَ اللهُ لِبِلَادِ مَجْلِسِ التَّعَاوُنِ الْخَلِيجِيِّ وَأَهْلِهَا الرِّضَا بِقِسْمَتِهِ، وَالْمَحَافِظَةَ عَلَى شَرْعِهِ فِي مَعَامِلَةِ الْوَلَاةِ (غَيْرِ شَرْذِمَةِ ضَالَّةٍ لَمْ يَخْلُقْ لَهَا فِي الدِّينِ وَلَمْ يَخْلُقْ فِي الدُّنْيَا): فَصَارَتْ دُولُ الْمَجْلِسِ مَثَالًا لِحَسَنِ الْعَاقِبَةِ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالِدِّينِ وَالْأَمْنِ وَالغِنَى. وَسُنَّتْ دَوْلَةُ الْبَحْرِيِّينَ سَنَةً حَسَنَةً بَعُودَتْهَا إِلَى الْفِطْرَةِ وَتَحَوَّلَتْهَا إِلَى الْمَلِكِيَّةِ الْوَرِاثِيَّةِ بَعْدَ أَنْ ظَنَّ الْعَرَبُ أَنَّ الْمَلِكِيَّاتِ أُخْرَى بِالنَّقْصِ مِنْهَا بِالزِّيَادَةِ، فَأَخْلَفَ اللهُ بِفَضْلِهِ ظَنَّهُمْ.

وَلِجَلِّ دَوْلَةَ قَطْرَ (وَغَيْرِهَا) تَتَلَوُ الْبَحْرِيِّينَ فَتَخْلَفُ ظَنَّهُمْ السُّوءَ.

أَمَّا دَوْلَةُ التَّوْحِيدِ وَالسَّنَةِ (الْمَمْلَكَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمَسْعُودِيَّةُ) فَهِيَ خَيْرٌ مَثَلٌ عَلَى حِفْظِ فِطْرَتِهَا وَحِفْظِ شَرِيعَةِ اللهِ لَهَا وَلِكُلِّ عِبَادَةِ الْمَصَالِحِينَ، وَكَانَ وَلايَتِهَا فِي الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ وَالثَّلَاثَ عَشَرَ الْمُهْجَرِي يَلْقَبُونَ بِالْأُمَّةِ، وَكَانُوا بِفَضْلِ اللهِ وَمَنْتَهُ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى تَجْدِيدِ الدِّينِ

بالعودة به إلى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته - رضي الله عنهم - وإزالة ما علق بالدين من البدع، خاصةً ما تلبَّس به تديُّنُ أكثر المسلمين من الشرك الأكبر بدعاء أوثان المقامات والمزارات والمشاهد والمُضرحَة (أوثان وأنصاب الجاهلية الأولى والمُأخيرة)، ولقِّب ولاداتها في القرنين الأخيرين بالملوك والأمراء، وقامت دولتهم المباركة بما قام به أجدادهم من الأمر بإفراء الله بالعبادة والمنهي عن صرف شيء من الدعاء وغيره من العبادة لغير الله أو إشراكه معه، والأمر باتباع السنة، والمنهي عن الابتداع في الدين، وما دون ذلك من شريعة الله تعالى. حفظها الله وحفظهم قدوةً صالحةً للمسلمين وذخراً للإسلام.

كتبه/ سعد بن عبد الرحمن المحصين عفا الله عنه، تعاوناً على البر والتقوى وتحذيراً من الإثم والعدوان.

1433/2/11هـ